الفصل الثانى

بعض من أسباب الغنى والسطوة

obeikandl.com

obeikandl.com

بدايات الثراء والثروة

** تتعدد أسباب الثروة ، فمنها ما هو حصيلة سهر الليالى وتعب الأيام ، ومنها ما هو بالوراثة ، ومنها ماهو بالصدفة أو ما اصطلح على أنه «ضربة حظ» . . وفى حالة الدول لا يختلف الأمر كثيراً عن حال الأفراد ، فمنها أيضاً من جاهد وكافح حتى وصل إلى بر الأمان (دول جنوب شرق آسيا) ، ودول ورثت ثروتها فصانتها وزادتها (دول غرب أوروبا) ، ودول أخرى جاءت إليها الثروة تسعى . .

ولا شك أن الولايات المتحدة الامريكية هى أغنى دولة ، عرفها التاريخ الحديث . ولكن ماهى أسباب ثرائها الفاحش هذا ؟؟ (قدرت ميزانية وكالة ناسا لأبحاث الفضاء . بأنها لو أنفقت على العالم ، لما صار فيه فقير أو جائع أو محروم) . . وإلى أى صنف تنتمى ؟

أتراها كادحة مكافحة ، اشترت الثراء بالدم والعرق والدموع ؟؟ . . أم أنها ورثت كل هاتيك الأموال ؟

(أمريكا دولة حديثة ، لم تظهر جغرافيا وتاريخيا بشكل مؤثر إلا فى أواسط القرن الثامن عشر) أم أنها الصدفة والحظ الذى طار ثم حط واستكان فسكن وعشش ثم باض على أشجارها وفوق شطآنها ؟؟ . .

أيا ما كانت الأسباب ، وأيا ما كانت الإجابات ، فالنتيجة واحدة ومبهرة . والخوض فى ذلك الموضوع شيق ومحبب . فهو يثير الخيال ويداعب الآمال ويريح النفوس اللاهثة . .

** الذهب ، تلك السلعة البراقة الصفراء ، التى تخطف أبصار الرجال والنساء على السواء . . ذلك المعدن الذى يمتلك قوة جذب هائلة ، جذبت الأسبان وعبرت بهم بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) وهو البحر الذى لم يعرفوه ولم يركبوه من قبل ، ولم يروا له أبداً إلا شاطئاً واحداً من يبتعد عنه ، مفقود ، ومن يرسو عليه ، مولود ، عبر الأسبان هذا البحر منجذبين إلى التبر الذى بدأ يلمع على الشاطىء الآخر . . ليس هذا فقط ، بل إن دولا دفعت إلى ساحة الحرب بتأثير إغواء وإغراء هذا المعدن . . الذى ما زالت مغناطيسيته تفعل أفاعليها بالناس .

والولايات المتحدة الأمريكية لها تجربة فريدة فى الغزوات الحديثة التى تمحورت حول هذا الخام النفيس ، ففى أزمنة عدة من القرن التاسع عشر، وفى أمكنة عدة بطول البلاد وعرضها ، هاجر مئات ثم ألوف فمئات الألوف من الرجال والنساء ، تاركين ديارهم وأهليهم وكل ما لهم سعيا وبحثاً وراء ذلك المعدن ، الذى ظهرت أولى بشائر فورة تدفقه الغزير فى عام ١٨٢٩ ، حين كان عدد الباحثين عنه ٥٠٠٠ فرد ، انضم إليهم فى العام الذى تلاه عشرون ألفاً آخرون ، انتشروا فى جنوب «جورجيا» وغربلوا كل قطرة ماء فى كل جدول ، وغسلوا ورشحوا كل حفنة رمل فى كل واد . . وغزوا أراضى الهنود الحمر (قبائل الشيروكيز)

وقاتلوهم وقتلوهم وطردوهم منها ، حتى لايعوقوهم عن هدفهم الأسمى . .

ولكن «كنوز الذهب» الأمريكية العظمى استقرت إلى الغرب أبعد من جورجيا كثيراً فقد وجد الذهب مستقراً وكامناً فى شطآن الأنهار وفى الوديان وبين الكثبان والوهدات فى صحراء نيفادا وجبال روكى وسفوح سيوكس فى القمم السوداء (بلاك هيلز) . . وفى كاليفورنيا ، بدأ عصر اكتشاف الذهب والاندفاعات المحمومة إليه فى يناير ١٨٤٨ ، عندما كان «جيمس مارشال» (نجار مهاجر من ولاية نيوجيرسى) يصنع طاحونة خشبية تعمل بدفع الماء الجارى فى النهر ، شراكة مع «جون سوتر» (مهاجر سويسرى) ، وفجأة لمح النجار شيئاً يلمع فى الماء العالق بالطاحونة ، كان فى شكل وحجم حبة الشعير . . . وكاد مارشال يطير فرحاً ، وصاح فى عماله «الذهب الذهب» لقد وجدت الذهب ، تحت أقدامنا ، كنز الذهب . .

يقول المؤرخ «دونالد ديل جاكسون» إن ذلك ربما كان أعظم اكتشاف للذهب الرسوبى فى التاريخ . فعلى امتداد شريط طوله ٤٠٠ ميل من المجارى المائية والأنهار كان الخام الأصفر الساحر يرقد سميكا كثيفا قريبا من السطح إذ أنه قد أزيح ، أو جرفته الأمطار من قمم الجبال إلى السفوح الممتدة من نهر «ترينيتى» شمالاً إلى منطقة «تولومن» جنوباً .

** « اكتشاف الذهب» عبارة قصيرة ، سافرت حول العالم فى سرعة البرق ، فأحدثت فى آذانه دوى الرعد ، وهاج الناس وماجوا ، وشدوا

الرحال . فلاحون وتجار وعمال ، اندفعوا فى سباق محموم إلى صحراء نيفادا يحصدون المعدن حصدا من مناجمه الكثيرة العدد ، فكان أتعس الناس حظا ، يحرز ما قيمته عدة مئات من الدولارات يوميا .

وهكذا بدأت فورة عام ١٨٤٩ ، وارتحل إلى أودية المناجم تسعون ألفاً، إما برا بطول القارة ، أو بحراً حول أمريكا الجنوبية ، أو بالاثنين معا عبر مضيق بنما ، قادمين من المكسيك وشيلى وألمانيا وانجلترا وأيرلندا وفرنسا وإيطاليا والبرتغال والسويد والنرويج وبولندا والصين واستراليا وهاواى (قديما قالوا إن أمريكا كعكة ، أكل منها كل العالم إلا العرب؟؟) . . تسابقت الجموع إلى كاليفورنيا وكونوا خليطا يغلى من كل الجنسيات والقوميات . وبنهاية العام حققت كاليفورنيا تعدادا سكانيا ، أهلها لأن تطلب الانضمام للاتحاد الفيدرالى كولاية قائمة بذاتها . .

استمرت فورة ٤٩ إلى عام ١٨٥٢ وربما امتدت إلى ١٨٥٧ ، إلا أن الاندفاع المحموم فى الهجرة إلى الولايات المتحدة ، لم يتوقف . . لقد كانت تلك الفورة هى الأولى فى مجموعة فورات متعاقبة ، استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر . موجة تلو موجة من الاكتشافات فى كولورادو وبلاك هيلز وألاسكا ، واستمرت تجذب المغامرين إليها برغم كل الآلام والصعاب والمعاناة والإحباطات وخيبات الأمل التى كانت تعصف بهم بين الفينة والفينة .

معظم هؤلاء المغامرين والباحثين انحدروا من عائلات الطبقة الوسطى . فالفقراء لم يستطيعوا تحمل تكاليف السفر وأثمان معدات

الحفر وما إلى ذلك . وخاصة أن الأسعار فى تلك الآونة ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً . . فحسب مقاييس عام ١٨٥٠ وصل سعر الفأس والجاروف أى منهما إلى ٥٠ دولاراً ، ودستة البيض إلى ٨ دولارات ورطل الدقيق إلى ٢ دولار وثمرة الكمثرى غير الناضجة وكوب اللبن ، كل بدولار . فى الوقت الذى كان أجر العامل فيه فى الولايات الشرقية دولارا واحدا فى اليوم (وكان الدولار يساوى ٧٠ دولاراً بسعر ١٩٩٠) .

** وتقدر الإحصاءات التقريبية أن مناجم كاليفورنيا فى الفترة من عام ١٨٤٨ـ ١٨٥٧ أنتجت ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار من الذهب الرسوبى والخام المخلوط ، وانتجت مناجم «يوكون» حوالى ٣٠٠ مليون دولار من الرسوبى ، وأنتجت صحراء نيفادا ٣٠٠ مليون دولار من خامى الذهب والفضة معا ، فى أول ١٤ سنة من بدء الإنتاج . وأعطت فورة صحارى كولوراد و٢٥ مليون دولار على أقل تقدير . وفى «كلوندايك» كان الناس يبتاعون الوعاء الممتلىء ذهبا مغسولا ومغربلا بمبلغ مائتى دولار ، وفى كاليفورنيا اتفقت جموع الباحثين من الذهب على تحديد سقف لإنتاجه بما لا يتجاوز ٢٠٠٠ دولار يوميا ، وذلك بغرض إطالة أمد الأرباح ، ولكن أحداً لم يلتزم بهذا السقف ، إلا فيما ندر .

هؤلاء المغامرون الأوائل ـ ماذا كانت دوافعهم وطموحاتهم ؟؟ كيف عاشوا ؟ وكيف قابلوا تحديات المغامرة ؟ وماذا جعلهم يستمرون برغم الإحباطات التى كانت كثيراً ما تفترسهم ؟ وما هى الفائدة التى جنتها البلاد من تلك الجهود المضنية ؟؟ وهل تحولت تلك الثروات الطائلة فى

أيديهم إلى شيء له قيمة على مر الأيام ؟؟ وإلى أى مدى غير هذا المعدن الأصفر من حياتهم ومن حياة الأجيال المتعاقبة فى هذه البلاد الجديدة ؟؟

الإجابات على هذه الأسئلة ، على ما فيها من تشويق إلا أنها تبدو بعيدة عن مجال بحثنا هذا .

ومجتمعات المناجم ، وعلى عكس التصور العام فقد كانت مجتمعات آمنة ، مسالمة ومنظمة . واستطاعت فورة كاليفورنيا أن ترسى قواعد وأعرافا ، خلدت فى كل الأزمنة ، وعممت فى كل الأمكنة .

وهكذا تضيف حقبة فورة الذهب إلى الخبرات الأمريكية المتفردة ، خبرة أخرى ، ثمينة وذهبية قلما تتكرر على الأقل فى الأيام المقبلة ، وما يضيف لتلك التجربة خلودها وعالميتها ، هو ذلك العنصر الإنسانى الذى حفلت به . فلقد كانت مليئة بالأخطار والآلام والآمال ، بالدموع والضحكات ، بالشجاعة والمغامرة ، وختاماً فقد انتهت إلى تكدس الثروة فى أيدى القلة لكى تعلو إحدى سنن الحياة الخالدة .

اقتصاد النظريات

حاول العلماء والباحثون تنبيه المستثمرين الجدد لعلامات التحذير والإشارات الحمراء التى قد تضاء على استحياء ، لايكاد يلحظها أحد ، منبئة عن كارثة محققة . إلا أن تلك التحذيرات لاتضمن بحال من الأحوال انتعاش السوق إذا ضمنت سلامته . فانتعاش السوق أو ركوده أمر تكاد الدراسات الأكاديمية أن لا تحققه إلا بنسبة ضئيلة ، فى حين يظل الأمر رهن عوامل أخرى تختلف من مجال إلى مجال آخر ، ومعظمها غير مرئى فى ساعتها . فحين يشعر البعض أنهم قد حققوا قدرا كبيراً من الثروة يمنحهم الثقة فى قدراتهم العقلية الفذة والمتفردة (حين تكون عادية جداً) فإن الآخرين من المستثمرين العقلاء ، يندفعون فى إثر هؤلاء القمم، فيشكلون تياراً عاماً يكاد يجرف الجميع دون ما لحظة تردد أو تفكير . وهكذا يتحولون إلى جموع لا عقل لها ، أو ما يسمون «بذوى الأدمغة المغلقة» .

إن هذا الحدث بهذا الشكل (إغلاق الأدمغة) يتكرر من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن ويتوارثه جيل عن جيل . ما يحدث هو أن شيئاً ما يكون جديداً ومبتكراً ، يحدث هزة فى الدوائر المالية . هذا الشىء قد يكون كلمة ؟ تشيع بين الناس ، إن ذهبا كثيراً قد اكتشف على حدود

«لويزيانا» (رغم إن هذا الأمر لم يتحقق ولم يره أحد ولكنه كان مجرد تقدير) .

أو أن نظرية اقتصادية جديدة سوف تتبناها الحكومة بخصوص المواد التموينية وستتغير على أساسها السياسات المالية . أو أن شحنات من زهور « التيوليب» الجميلة والتى تنافس فى قيمتها الذهب ، سوف تتوافد من الشرق . كل هذه الأنباء المتواترة قد يندفع خلفها البعض وقد يحققون ثراء فاحشا (لأنهم الأوائل) . . ولأن النجاح يغرى لذلك تجد الآخرين يندفعون خلفهم ، أملاً فى أن يصيبوا ما أصاب سابقوهم . وهكذا يتحول الانتعاش الاقتصادى فى سوق ما إلى هروب جماعى من الواقعية العقلانية .

** والدليل على العدوى المجنونة التى قد تهب على الأسواق انه عندما ترتفع أسعار سلعة ما بشكل جنونى ، لا تحكمها قاعدة ، فإن مجموع المشترين والذين يساهمون بقدر كبير فى هذه اللعبة ، يرفضون الاعتراف بأن شيئاً ما غريباً يحدث ، وتصيبهم حمى الشراء ، فترتفع الأسعار أكثر ، وهكذا حتى ينكشف الغبار عن ملهاة ساخرة . ويستشهد أحد البحاثة برواية حالة مسجلة : «فى عام ١٦٣٦ ، استضاف تاجر هولندى بحارا ، على العشاء فى منزله وقدم له وجبة فاخرة من أسماك الرنجة والفسيخ والسردين . وأثناء الأكل لمح البحار زهرة «التيوليب» ـ وكان ثمنها آنذاك يتراوح ما بين ٢٥ ألفا إلى ٥٠ ألف دولار بسعر أيامنا هذه ـ فما كان من البحار إلا أن تناول هذه الزهرة المخصصة للزينة وأكلها لتحل محل البصل فى معدته . ومن ذلك

نستدل على هوس البحار ، بسعر الزهرة وليس بالزهرة نفسها (إذ أن وظيفتها عنده تتساوى مع وظيفة البصل !) . . ويستمر فيقول بأنه خلال حمى ارتفاع السعر ، فإن من يجرؤ على الإشارة إلى أن هذه الأثمان عشوائية ولا أساس لها من الواقع وأن انهيارا وشيكا فى السعر سوف يحدث ، فإن أحدا لن يستمع إليه بل قد يتهم بالخبل والعته .

ويؤكد أنه يحدث عقب كل رواج وانتعاش فى السوق ، انهيار حاد ومفاجىء ودرامى يتمثل فى تدنى الأسعار بشكل خطير وهذه النهاية الحتمية غالباً ما تكون مصحوبة بدوى وفرقعة هائلة ، فالجميع يتسابقون فى البيع هربا من الخسارة ، وبشكل أكثر كثافة من سعيهم خلف الربح ، وهذا ما يضيف ويبالغ فى حجم الخسائر . . ولم يكن هناك فى وقته أذكى ولا أعقل من العالم النابه السير «إسحاق نيوتن» ـ مكتشف الجاذبية الارضية ـ والذى خسر مبلغ ٢٠ ألف جنيه استرلينى فى انهيار عام ١٧٢٠ ـ (وهو ما يعادل قرابة المليون دولار بالأسعار الحالية) . وسرعان ما ينسى أبناء الجيل الجديد ، المحاذير التى وقع فيها آباؤهم . وهكذا تتكرر المأساة كل زمن .

إلا أن الثابت أن فترة الانتعاش والرواج ، حتى وإن كانت بغير أساس سليم ومتين ، إلا أنها تعتبر حلقة فى سلسلة التطور الاقتصادى وإليها يعود الفضل فى بناء المدن وتمهيد الطرق وإقامة المشاريع والمصانع وتشغيل الأيدى العاملة ، وإجمالاً ، تغيير وجه الحياة .

فإذا حدث الانهيار المتوقع فى أسواق المال فإن ما تم إنجازه يستأهل المغامرة .

وهكذا فإن الذين يملكون المال هم أكثر من غيرهم عرضة للسعادة الغامرة والزهو بأنفسهم وهم أيضاً الأكثر عرضة لأقسى درجات الإحباط والمرارة . وباختصار فإن الأثرياء جداً ليسوا بالضرورة الأذكياء جداً ولكنهم حتما الأكثر حظا .

obeikandl.com

أمير نيويورك غير المتوج .. «دافيد روكفلر»

هو الأب الروحى لكل البنوك الامريكية والأمير غير المتوج لنيويورك وأخيراً هو رئيس حكومة الظل التى تشارك بالتوجيه من نيويورك فى مقابل حكومة السلطة التى تشرف على التشريع والتنفيذ من واشنطن ، إذن هو واحد من أهم أقطاب النخبة المهيمنة فى الولايات المتحدة . مكتبه يقع فى الطابق الخامس والثلاثين من مبنى بنك «تشيز مانهاتن» الذى تملكه أسرة «روكفلر» وهو يقع وسط «وول ستريت» ـ حى المال والأعمال فى نيويورك ـ ويحتل المكتب قلب المبنى كله بما فيه صندوق الخرسانة المسلحة الذى يدور حول المصاعد وهو يشكل فى وسط المكتب كتلة ضخمة هى نقطة الارتكاز التى تحيط بها بقية المكتب وهى دائرة عريضة لاتقل مساحتها عن ثلاثمائة متر مربع ، وفى نقطة وسط هذه الدائرة العريضة مائدة قديمة من الطراز الإنجليزى للقرن السابع عشر وراءها مقعد واحد لصاحب المكتب ومقعد فى مواجهته لزائره ثم مائدة صغيرة من نفس العصر والطراز عليها جهاز تليفون واحد وهذا كل مافى قاعة المكتب من أثاث . والأثاث فى كل الأحوال لايخطف البصر ولكن ما يدهش فعلا هو مجموعات اللوحات التى تغطى الجدران وتتغير كل سنة فهى فى إحدى السنين لروائع الفن الايطالى وهى فى سنة ثانية لروائع

الفن الفرنسى وفى سنة ثالثة لروائع الفن الأسبانى . . وهكذا . وتحت مستوى مجموعات اللوحات توجد موائد أو رفوف تدور مع القاعة حيث تدور وهى أيضاً مجموعات رائعة من فنون النحت تتغير بدورها كل سنة. ونافذة المكتب تطل على تمثال الحرية ، حمام المكتب جدرانه مغطاة بمجموعة استكشات بتوقيع «بيكاسو» لايمكن أن تقل قيمتها عن ثلاثة ملايين دولار فى حين تقدر مجموعات المكتب كلها فى حدود مائة مليون دولار .

ولأن أسرته تسيطر على أكبر البنوك فى أمريكا «تشيز مانهاتن» و«ناشيونال سيتى» وعشرات غيرهما فإنه أصبح «بابا» البنوك الامريكية ، ولأنه كذلك ولأن معظم البنوك وأكبرها مركز فى «نيويورك» (العاصمة المالية للولايات المتحدة) فإنه أصبح «أمير» نيويورك غير المتوج . . يقول «دافيد روكفلر» : (كان أول درس تعلمناه فى جو الأسرة أن أكبر قدر من النجاح يرتبط بأقل قدر من الكلام ، كلما تكلمنا أكثر كشفنا من مواقعنا رقعة أوسع وكلما كشفنا المزيد من مواقعنا كلما ضاقت أمامنا مساحة الحركة وحرية التصرف . ميدان المال فيه كثير من ميدان الحرب خصوصاً بالنسبة للسرية والمفاجأة وسرعة الحركة بالفعل أو برد الفعل) .

وقصة « دافيد روكفلر» ـ مثل كثيرين غيره ـ هى قصة ظهور ونمو القوة الأمريكية . كان جده «جون روكفلر» مولودا لمهاجر ألمانى تزوج من مهاجرة اسكتلندية ، وكان هذا المهاجر الألمانى «وليام روكفلر» نوعا غريبا من المهاجرين ، ادعى فى فترة من فترات حياته أنه طبيب وراح يعالج مرضى السرطان بالشعوذة والدجل ، ثم دخل السجن متهما

باغتصاب شابة صغيرة السن ، وكانت زوجته المهاجرة الاسكتلندية هى التى حفظت البيت ورعت الأولاد ووجدت وظيفة لابنها «جون روكفلر» ككاتب حسابات فى إحدى الشركات . وكلفته شركته يوما أن يدرس الاحتمالات الاقتصادية لمساحة شاسعة من الأرض فى ولاية بنسلفانيا حصلت عليها الشركة بالتوسع على حساب إحدى قبائل الهنود الحمر ، وذهب «جون» وإذا هو يكتشف فى الأرض بترولا ثم إذا هو يجعل الاكتشاف لنفسه بوضع اليد ثم يجد نفسه صاحب بئر بترول ثم حقل بترول ثم مجموعة حقول بترول وأصبح مليونيرا فى سنوات معدودة ، وراح يتوسع وساعده على التوسع امتداد شبكات السكك الحديدية ، ثم أن «هنرى فورد» كان قد صنع محرك السيارة ، وراح روكفلر يتوسع أكثر وتوصل إلى محصلة خبرة كانت فيما بعد أساس علم الإدارة الحديث ومؤداها أنه فى حاجة إلى مساعدين كثيرين أكفاء وموثوق بهم ، ثم كانت القاعدة التى استرشد بها هى «أن الإدارة لا علاقة بها بالملكية» وأن المالك حين تتسع مصالحه يحتاج إلى مديرين من أعلى طراز ، ثم أن الملكية قضية والإدارة قضية أخرى» .

وقفز «جون روكفلر» بمصالحه من الشمال إلى الجنوب ، من الولايات المتحدة إلى امريكا اللاتينية لاهثا وراء مواردها المعدنية يحصل فيها على امتيازات واحتكارات ساعدته عليها «مهارته» فى رشوة أعضاء الكونجرس ليصدروا له ما يشاء من تشريعات ، ثم استطاع تعزيز ذلك بقسوته الشديدة فى استغلال امتيازاته واحتكاراته الخارجية بأقصى قدر من العنف ضد السكان المحليين ، وفى هذا كله كان «جون روكفلر»

يدافع عن نفسه ضد الذين هاجموا أساليبه فى الحصول على الثروة بقول مأثور عنه وهو : (إن رصيدى فى البنك هو الشهادة لى بأن الله راض عما أفعله) . .

وفى بداية القرن كانت ثروة «جون روكفلر» تقدر بألف مليون دولار فإذا حسبنا هذا المبلغ بقيمة النقود الآن فإنه يصبح مائة ألف مليون دولار على الأقل . كان «جون روكفلر» واضحاً فيما يريد ومحدداً «المال ، والنفوذ الذى يوفره المال لأصحابه » وهذا هو كل شىء . . ولعل «جون روكفلر » أراد أن يخفف عن ضميره فأنشأ مؤسسة خيرية للتعليم وأسهم فى إنشاء عدد من الجامعات تبرع لها بمئات الملايين من الدولارات وعلى أية حال فإن آلة صنع الثروة لم تكن تكف عن الدوران ، ولم يكن «جون روكفلر» وحده فارس هذا المضمار وإنما كان معه كثيرون ، كلهم اغتنموا وكلهم جمعوا ثروات طائلة واكتسبوا نفوذاً واسعاً وراء هذه الثروات الطائلة وكلهم تركزوا فى الشركات والمصانع والبنوك . أسماء مشهورة حتى الآن ومنها : «مورجان» «ميللون» «فاندربلت» «هاركنس» «كارنيجى» و«ينشروب» وغيرهم الكثير ، وكانت لهؤلاء جميعاً جيوش من المديرين والمحامين والمستشارين والدعاة وهكذا تحولت جماعات شرق الولايات المتحدة «المطل على الأطلنطى » إلى شبه مؤسسة ثم إلى مؤسسة كاملة تتفاعل مع من حولها وتبلوره واحيانا تعارضه وتتصدى له حتى صارت تركيبا اجتماعيا ومن ثم سياسيا ، فأصبح هناك ما يسمى «بالمؤسسة الشرقية» .

ولم تكن هذه المؤسسة ظاهرة مباشرة فى سلطة الحكم فى واشنطن

لكنها كانت موجودة وكان نفوذها محسوسا سواء بما تملكه مباشرة من المصالح الكبرى أو بما تشتريه فى سوق السياسة من وسائل فى الكونجرس أو حتى فى البيت الأبيض ذاته .

ومؤسسة روكفلر كما نعرفها الآن ، جهاز ضخم للتفكير والأفكار ونشرها داخل أمريكا وخارجها ، ومراكز للبحث والدرس وإعداد البدائل والخيارات وأقسام متخصصة فى مساعدات التعليم وتطوير البيئة وتمويل بعض المشروعات العلمية التى تضع العاملين فيها على مئات النقاط الحساسة باتساع العالم بأسره . ويفتح هذا الجهاز الضخم كل نوافذه وأبوابه لأصحاب الفكر ليحصلوا كمديرين للعقول على نفس الدخول التى يحصل عليها مديرو البنوك والشركات والمصانع .

وظل الشرق الأمريكى هو الموطن الأساسى للصناعة والمال فى النصف الأول من القرن العشرين .

أصبح واضحاً الآن أن الغرب الأمريكى أصبح هو الموطن الأساسى للصناعة والمال فى النصف الثانى من القرن العشرين (ولأسباب عديدة أهمها سباق التسلح) وتكونت مصالح هائلة «بوينج ـ لوكهيد ـ نورثروب ـ روكويل ـ ماكدونالد دوجلاس ـ يونايتد تكنولوجى ـ وغيرهم الكثير . . وكان لابد أن تكون لهذه المصالح الهائلة وسائلها فى التأثير على القرار وحصلت لنفسها بدورها على ما تحتاجه من المديرين (مديرى الأموال والعقول والخطط) وأضافت إليهم مديرى الاتصالات فلم يكن لها أن تترك بعدها الجغرافى عن واشنطن عقبة تحول دون أن تكون حاضرة

باستمرار وهكذا أنشأت هذه المصالح لنفسها مؤسسات جديدة ومراكز للأبحاث .

وهكذا أصبح روكفلر والذى صبت فى حجره أنهار اقتصادية وكتل مالية ضخمة جعلت منه سواء شاء أم أبى شخصا مؤثرا على القرار السياسى الذى يصدر من واشنطن ولعل هذا التأثير يتضح فى تلك الأمثلة :

المثال الأول : وهو أزمة البترول الإيرانى . . فى عام ١٩٥٢ أمم (مصدق) البترول الإيرانى . . وتم تكليف رجل من قبل المخابرات المركزية الأمريكية بالتحضير وتنفيذ الانقلاب ضد «مصدق» (وكانت وكالة المخابرات أيامها تحت رئاسة «آلان دالاس») وينجح الانقلاب ويعود الشاه ويجهض قانون تأميم البترول فتحصل شركة «جولف» الأمريكية مع شركة ستاندرد (التى تملكها أسرة روكفلر) على النصيب الأكبر فى الشركة الجديدة التى جرى تأسيسها بعد سقوط قانون التأميم ويصبح رجل المخابرات مستشارا خاصا لشركة (جولف) فى حين يصبح «دافيد روكفلر» مستشاراً سياسياً واقتصاديا للشاه وكذلك يصير بنك تشيز مانهاتن (الذى تملكه أسرة روكفلر) هو البنك المعتمد لإيداع كل عوائد البترول الإيرانى . وكان لهذا البنك بعد ذلك تأثير مباشر فى الحياة السياسية للولايات المتحدة وعلاقاتها مع إيران بالتحديد .

المثال الثانى : لتأثير «روكفلر» فى السياسة الأمريكية هو ما يعرف بنادى السفارى فى افريقيا فقد كان نظام الجنرال «موبوتو» فى زائير فى أوائل السبعينات يواجه تهديدا خطيرا بسبب فساد الحكم وسوء الإدارة

وتبديد الموارد نتيجة لذلك ، وكانت مصالح أسرة «روكفلر» سواء بواسطة بنك تشيز مانهاتن أو الشركات العاملة فى إطاره العام ـ هائلة طائلة فى زائير وكان القول السارى وقتها هو أنه «إذا سقط موبوتو أفلس وراءه بنك تشيز مانهاتن» ـ وتجسد التهديد ضد (موبوتو) فى جيش الخلاص الوطنى يقوده ثائر اشتهر باسم الجنرال «بومبا» وراح هذا الثائر يزحف بجيشه على مقاطعة «شابا» ـ وهى موطن أغنى مناجم النحاس فى أفريقيا . وكانت واشنطن ووزير خارجيتها «هنرى كيسنجر» تحت ضغط تفليس تدخلها الخارجى بسبب رواسب حرب فيتنام ، وكان هنرى كيسنجر قد عجز من قبل على الحصول من الكونجرس على اعتمادات لمقاومة النظام الوطنى فى أنجولا ، ثم فاجأت الكل أحداث زائير والخطر على «موبوتو» ، وفجأة ظهر ما أسموه «نادى السفارى» وهو هيئة للتدخل السريع المسلح أنشأتها مصر والمغرب والسعودية وإيران ـ وإذا بهذه الهيئة تبدأ عملياتها بالتدخل فى زائير والقضاء على حركة عصيان الجنرال «بومبا» وتثبيت الجنرال «موبوتو» على عرش زائير ، وبعدها ارتفعت أسهم بنك «تشيز مانهاتن» وبقية شركاته التى تملكها أسرة روكفلر ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ٪ .

المثال الثالث : والدال على أن روكفلر صار يلعب دورا مهما فى السياسة الأمريكية هو أنه بشخصه أو بالعاملين معه ، كان مبعوثا خاصا للرؤساء الأمريكيين إلى مناطق التوتر وبخاصة فى محاولات حل أزمة الشرق الاوسط . فـ «جون ماكلوى» كان هو المبعوث الثانى لمصر بعد الثورة (ربيع سنة ١٩٥٣) وكان ماكلوى « رئيسا لمجلس ادارة بنك

تشيز مانهاتن » ومهمته كانت هى التلويح بمساعدات أمريكية فى مقابل السلام مع إسرائيل . . ولم تنجح المهمة ، أما « دافيد روكفلر » نفسه فقد كان هو المبعوث الثالث إلى مصر حاملا معه خطابا بتوقيع الرئيس « أيزنهاور » وقد تصور الرئيس « جمال عبد الناصر » وقتها أن «روكفلر » كان مهتما باستثمارات فى مصر، وفوجىء حين وجده يتحدث فى صميم القضايا السياسية . وحار عبد الناصر فى الصلة التى يمكن أن تربط بين أيزنهاور وروكفلر وكان عبد الناصر دائماً شديد الحساسية لما كان يسميه سيطرة رأس المال على الحكم ـ أما فى عهد الرئيس السادات فقد كان «دافيد روكفلر» هوأكثر الرسل تردداً على القاهرة وكان يحمل معه دائماً رسائل من سادة البيت الأبيض وأحياناًمن سيد قصر «نيافران» (شاه ايران) ، وأصبح دافيد روكفلر وثيق الصلة بالرئيس السادات وكانت أهم زيارة لـ «روكفلر» إلى مصر فى ٢١ سبتمبر ١٩٧٣ حين جاء لمدة يومين ، وفى هذه الزيارة طلب «دافيد» من الرئيس السادات أن يفتح فى مصر فرعا لبنك «تشيز مانهاتن» ووافقه السادات على طلبه . (وبعد ذلك قام «دافيد روكفلر) بثلاث عشرة زيارة لمصر قابل الرئيس السادات فى كل زيارة منها ثم التقى الاثنان بعد ذلك فى كل مرة قام فيها الرئيس السادات بزيارة الولايات المتحدة) . . لكن الدور الأكبر لروكفلر كان دوره لذى لعبه بإتقان فى مشكلة فوائض الأموال العربية بعد رفع سعر البترول ، ففى سنة ١٩٧٣ وقبل حرب أكتوبر ـ كانت الأوضاع المالية فى الولايات المتحدة فى شبه ضائقة عكست نفسها فى ظهور عجز فى ميزان المدفوعات الأمريكى لأول مرة منذ سنة ١٩٧٣ وكان سعر الدولار متدنيا

إزاء كل العملات الأوربية والين اليابانى فضلا عن أن المنافسة الألمانية الغربية واليابانية بدأت تشتد على السلع الأمريكية وفجأة وفى أسابيع قليلة وفى ظروف حرب أكتوبر ـ تضاعف سعر البترول عدة مرات (من سبع إلى ثمانى مرات) ولم يكن هذا الرفع ضمن الخطة العربية لاستعمال البترول ضمن أسلحة الحرب ، فقط هو الحظر الذى كان مقصوداً كسلاح رئيسى ، وبدأ الرفع الأول وكان منطقياً فالحظر سوف يخلق ندرة فى السوق ترفع السعر ، لكن الرفع الثانى كان مفاجأة وكان الذى تولى إعلانه هو شاه إيران «محمد رضا بهلوى » .. أعلن بنفسه فى مؤتمر صحفى رفع أسعار البترول أربعة أمثال سعره السابق مرة واحدة وكان هناك معنى واحد لتصدر الشاه لهذه العملية وهذا المعنى هو أن الولايات المتحدة ومصالح «روكفلر» بالذات ليست بعيدة جداً عما يجرى) .

وأصبحت الأموال ـ مثلما كانت سلاحاً فى يد البنك ـ تهدد به الولايات المتحدة مصير الاقتصاد العالمى ـ أصبحت أيضاً سلاحا ضد الولايات المتحدة والبنك يمكن أن يحدث دماراً شديداً فى اقتصادها وعلى حد تعبير (هنرى كيسنجر) : إن كتلة المال السائل فى يد العرب ـ بعد خطر ٧٣ البترولى ـ تشبه قطعة ضخمة من الحجر انكسرت من قمة جبل وتهدد بالسقوط .

زعيم البيبسى كولا

** إن مشاهدة العالم من خلال قاع زجاجة الكوكا كولا السميك ، أو من خلال فقاقيعها التى تتطاير على السطح ـ أيهما تفضل ـ يجعل الرؤيا تبدو مختلفة تماماً قد تكون ضاحكة أو ساخرة ولكنك تدهش عندما تعلم أنها فى أكثر الأحيان صادقة . وهذا هو سر المرارة التى يتجرعها العالم بعدما أدمن مشروب الكوكا كولا السحرى العجيب . . ولكن ترى هل تتغير رؤية المؤرخين ونظرتهم للتاريخ لو تناولوه بهذا الشكل . وهل من الممكن أن تقع على شىء ذى قيمة لو تأملنا مليا فى زجاجة البيبسى الكولا المثلجة «عروس ليالى الصيف وأيامه القائظة»!؟ . .

** مؤرخو المياه الغازية يعتقدون أن الحرب العالمية الثانية لم تكن إلا توسعات فى أسواق شركة الكوكاكولا العالمية ـ وإن كانت توسعات باهظة الثمن إلا أنها مؤكدة النتيجة فى امتلاكها وتفردها بأسواق العالم بلا منافس . . وسباق عام ١٩٦٠ الرئاسى لم يكن إلا استثناء فى المذاق للشعب الامريكى بين زعُيم «البيبسى» «ريتشارد نيكسون» وبين «جون كينيدى» الموالى والمخلص للـ «كوكاكولا» . أما أزمة خليج الخنازير الشهيرة بين الثلاثى كينيدى وفيدل كاسترو وخروشوف والتى كادت أن

تطلق شرارة الحرب العالمية الثالثة الذرية بين قطبى العالم آنذاك ، فكانت (فى رأيهم) بسبب إحكام كاسترو قبضته على مزارعه المحلية للكوكا وكذلك تأميمه صناعة الكوكا كولا .

ربما كان هذا تحميلا للأحداث بأكثر مما تحتمل ، تلك هى محاولة اختصار مجريات الأمور فى مجرد زجاجة معقوصة مخنصرة ، أنثوية الشكل والمنظر ، صنعت الزجاجة نفسها عام ١٩١٤ .

وعن نشأة هذا العصير المركز ، المذاب فى الماء الفوار ذى النكهة التى عشقها العالم سريعاً ، وسرعان ما صارت أوسع المنتجات انتشارا وأقواها احتكاراً للأسواق فقد قيل : لقد ولد هذا المشروب فى ولاية «أطلانطا» عام ١٨٨٠ وسط حملة قومية تجارية تزفه إلى الناس على أنه «زيت الثعبان» ـ الدواء الفاتح للشهية والترياق الشافى لكل الأمراض العصبية ـ . ولقد سمى بالـ «كوكاكولا» لأنه أساسا كان يشتق من حبوب «الكولا» وأوراق «الكوكا» (نفس الأوراق التى يستخرج منها «الكوكايين» المخدر) . وقد أشيع أن هذا المشروب يذهب العقول وأنه يطلق عدوانية الزنوج من إسارها نحو البيض . وقد لاقت هذه الإشاعة رواجا وشيوعا لدرجة أن الشركة اضطرت إلى سحب المقادير القليلة جداً من الكوكايين من تركيبة «الكوكاكولا» فى عام ١٩٠٣ . ومنذ ذلك التاريخ خلت التركيبة السحرية من العقار المخدر . . ويقول المؤلف إن الأقاويل تضاربت وتعددت الأساطير عن هذا المخترع الهمام الذى استنبط هذا المشروب ، ولكن الجميع يكاد يجمع على أنه طبيب فقير ومحبوب ،

تنحدر عائلته من جنوب الولايات المتحدة ، يدعى «جون ستيث بمبرتون» وكان مدمنا للمورفين .

أما «آسا كاندلر» فكان صيدلانياً عبقريا ولكن بلا ضمير ، فقد التقط سر المشروب (معادلته الكيميائية) من زميله الطبيب وحولها إلى مشروب شعبى يمكن تصنيعه على نطاق واسع ويحدث أقل الأضرار (التى كانت تصاحب الكوكايين) ـ دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى زميله مدمن المورفين والمخترع الأصلى . ولكن الأمر كان بحاجة إلى رجل مثل «روبرت وودروف» له قبضة حديدية تمسك بزمام الأمور فى شركة «الكوكاكولا» الوليدة لأكثر من ثلاثين عاما (١٩٢٣ ـ ١٩٥٥) ، وضع خلالها مبيعات الشركة فى أولى أولويات حياته وقبل أى قيمة إنسانية أخرى . وهوما ألقى بظلال من الشك والريبة حول النجاح الباهر الذى حققه المشروب السحرى .

** يقولون فى عالم الاقتصاد إن الاشتغال والانشغال بأمر الكوكا كولا ـ هو وباء معد ، ففى زيارة للتاريخ مدتها قرن كامل ، نجول خلالها وديان وأحراش العالم ونتأمل معا : كيف من الممكن أن يتأثر التاريخ بهذا المشروب الذى أسموه فى طفولته بزيت الثعبان . إنها واحدة من عقائد الرأسمالية العلمانية البراجماتية حيث لا أخلاقيات ولا مثل عليا ولا سلطة أعلى يرجوها البشر ، اللهم إلا زيادة الاستهلاك وزيادة الانتاج وتراكم الأرباح . إنها قوة المنتج فى هذا العالم الجديد .

** إن تطور الحرب العالمية الثانية ودخول أمريكا فيها كى تصبح

بحق عالمية ـ صاحبه بدء انتشار مشروب الكوكاكولا عالميا واكتساحه الأسواق بشكل سرطانى مخيف . بل إن تورط أمريكا فى الحرب كان أساساً لصالح هذه الشركة العملاقة وإن ضرب اليابانيين لميناء «بيرل هاربور» بالقنابل ـ أعطى بطريق غير مباشر ، لشركة الكوكا كولا فرصة ذهبية للسيطرة على الأسواق العالمية وتثبيت الأقدام ؛ إذ قتل فى تلك الغارة أربعة من أكبر زراع الكوكا فى هاواى ـ قتلوا فى حقل «هيكام» فأقامت لهم شركة الكوكا كولا النصب التذكارية وانطلق صوت الناعى فى العالم كله ينعى شهداء المشروب الملائكى ومن لم يعرف قد عرف . على غرار نعى اليهودى لابنه « الأسطى كوهين ينعى ولده الأوحد «عزرا» ويصلح الساعات يوميا عدا السبت» . . . وبما أن اليابان لم تكن تضع المياه الغازية فى حسابها عند اقتحام امريكا . . واعتصام ١٩٦٠ التاريخى فى قاعة طعام «وول وورث» فى «جرين سبورو» فى «سوث كارولينا» والذى كان غرضه الأساسى المساواة فى الحقوق المدنية بين البيض والسود ، بدأ عندما رفض أربعة طلاب سود ـ لأغراض هضمية بحتة ـ سندوتشات الهامبورجر ومشروب الكوكاكولا . وهكذا ركب أصحاب الشركة موجة التذمر العنصرى التى اجتاحت الجنوب ليطالبوا بحقوق متساوية للسود المضطهدين ومشروب الكوكاكولا المضطهد أيضاً (ربما لأنه أسود اللون !!) . . تلك الزجاجة الصغيرة ، يكفيها فخرا أن العالم كله الآن يجتمع عليها مهما اختلفت أذواق اطعمتهم . . الجميع يعرفون تماماً طعم الكوكاكولا ويحبونها ، لدرجة أن الشركة حاولت خلسة فى عام ١٩٨٥ تغيير معادلة التركيب بما يسمى «نيوكولا» فأحدث ذلك تقززاً عالمياً . . . وهكذا بدا أن العالم لم يفطم بعد عن هذا المشروب .

عالم ناقلات البترول

** قليلاً ما تثير انتباهنا ناقلات البترول . . فالأهم منها هو البترول ذاته ، أسعاره وكميات إنتاجه ومستقبل أيامه . . أما تلك السفن العملاقة التى تمخر عباب البحار والمحيطات ليل نهار ، والتى لولاها لما انتقلت تلك المادة الحيوية إلى خمسة أسداس العالم ، ولاندثرت حضارة اليوم الغربية تحت أكوام الجليد ، فإن تلك السفن لا تثير قضية إلا عندما تتعرض لكارثة . . والكارثة هنا لا تتجزأ .

دع ناقلة تتحطم على صخور ألاسكا ، مثل ما حدث مع «ايكسون فالديز» فإنما تتحول وبسرعة إلى نجم إخبارى ، وسوف تطغى شهرتها على شهرة السفينة «تيتانيك» السينمائية .

إن كميات البترول الهائلة المتسربة قرب الشواطىء وخاصة بالسكان ، أو التى تزحف إلى المياه النقية ، فتعوق الشرب والرى ، بالإضافة إلى الأحياء المائية التى تنفق بالملايين ، فتضيف هى والأبخرة الكيماوية المتصاعدة إلى تلوث البيئة تلوثا آخر ثقيلاً وكثيفا ، كل ذلك كفيل بأن يجذب الانتباه ويثير القلق والانزعاج ، فتتحرك الحكومات لاتخاذ الاحتياطات ، ويتحرك الناس فرادى ومجموعات ضد الخطر الواقع ، وقد تمتد الثورة إلى مهاجمة الناقلات ، ولكن لأنه لا بديل ، فلا طائل من

العويل . . ولأن اللحظة قصيرة ، وما ينفجر فجأة يخمد بسرعة ، هكذا فإن اللغط المثار حول احتياطات أمن الناقلات ، يهدأ تدريجيا حتى ينسى فى انتظار كارثة جديدة .

فإذا وقع المحظور مرة ثانية ، فإن الأسئلة سوف تعيد طرح نفسها من جديد .

** إن هاتيك السفن الضخمة ، تتصادم أو تتحطم أو تحترق أو تسرب البترول أو تغرق بمعدلات غير ثابتة ، بل بطريقة عشوائية بحتة . وإن ما يزيد من تلك الاحتمالات هو خطأ فى التصميم والإنشاء ، أو قواعد الأمن والسلامة المرنة أو عدم الالتزام بأصول الصيانة ، أو عدم كفاءة اختبارات الكفاءة أو التشغيل فوق الطاقة أو بعد العمر الافتراضى ، أو استعمال ملاحين غير مدربين ، أو الإبحار فى ظروف مناخية غير مواتية . . فدائما ما توزن الأرباح ضد احتياطات الأمن . . وبهذا المنطق ، منطق الربح ، تسير الأمور . .

** الأغلب الأعم من رحلات الناقلات ، يبدأ وينتهى فى سلام . . ولكن ليس كلها ، فإن ٨٤ ناقلة سربت ٦٥ مليون جالون من البترول إلى مياه البحار والمحيطات . . وبالإحصاءات فإن بحاراً (ممن يعملون بالناقلات) يقتل كل ثلاثة أيام . .

ومثل الطائرات ، فإن تلك السفن الضخمة ، تحمل فى طياتها كل أنواع الأخطار المحتملة . ولكن صناعة السفن ليست كالصناعات الجوية ، فليس فيها تلك القواعد الصارمة الملزمة الخاصة بالأمان

والسلامة . وإنما تظل الأعراف والتقاليد ومواءمة الأغراض الربحية ، هى المتحكم الأساسى فى هذه الصناعة . وعلى ما يبدو فإن الاتجاه إلى تطبيق مزيد من الاحتياطات الصناعية الأمنية ، يسير بطيئاً جداً . فبالرغم من بروز ضرورة أن يصنع بدن السفينة من طبقتين مزدوجتين ، إلا أن شركات البترول وملاك الناقلات يعارضون هذا الاتجاه بشدة لتأثيره السلبى على محصلة أرباحهم . . وإزاء ذلك فإن الكثير من الناقلات ذوات الطبقة الواحدة سمكا سوف تظل تحمل البترول فى المياه الأمريكية للعشرين سنة القادمة .

إن عالم اليوم الذى صار أكثر اعتمادا على هذا الذهب الأسود ليس له من سبيل إلا استعمال الناقلات ، من أجل أن يستمر مشعل الحضارة موقدا . . ولقد لاحظ الباحث ، فيما لاحظه أن حرس السواحل صاروا أكثر تراخيا مع ملاك السفن العملاقة ، إضافة إلى فرق المفتشين على سلامة الأداء ومهندس الصيانة . لقد صار الكل يعمل لصالح الملاك الذين شكلوا قوة ضغط هائلة ، تستخدم ما لديها من نفوذ وأموال لأجل فرض كلمتها ـ والأمل معقود برجال الصناعة أن يفلتوا من دائرة التأثير لصالح سلامة البيئة . . فعندما تتسرب ملايين الجالونات من البترول إلى مياه المحيط ، فإن كل الخطط الموضوعة لمواجهة مثل هذا الطارىء وكل الرغويات الطافية وكل المذيبات الكيماوية فى العالم أجمع ، لن تتمكن من التخلص من معظم هذا التسريب ، ولن يستطيع شىء إعادة عذرية الطبيعة التى انتهكت . ويبقى الحل فى المنع ، وتبقى الوقاية هنا هى العلاج الأوحد .

قصة السيجارة المارلبورو

ظل رجال « مايا » يدخنون السيجار الذى طوله قدم لعدة قرون ، أما هنود « الأيروكووس » فقد وجدوا أن صقورهم لا ترقص بدون التبغ إطلاقا ! أما فى مقاطعه « مونتزوما » فإن العشاء لا يتم بدون البايب . لكن هذا كله لم يكن يحدث قبل عام ١٤٩٢ حين حط كولمبوس رحاله فوق القارة الأمريكية وكان رجاله هم أول من اكتشفوا هذا النبات هناك ، وهم أول من أحرقوه واستنشقوا دخانه .

ومنذ ذلك التاريخ تقريبا تحول التبغ من مجرد أوراق نبات شيطانى ينمو فى وديان وصحراء القارة الجديدة إلى صناعة ضخمة ومعقدة رأسمالها يتعامل فى البلايين من الجنيهات الاسترلينية والتى درت عائدا ضريبيا على الخزانة البريطانية قيمته ٥ ملايين جنيه استرلينى والآن فإن مبيعات الشركات الكبار بلغت فى عام ١٩٨٩ وحدها مائة مليار دولار من حصيلة إنتاج أكثر من ١٧٠٠ مليار سيجارة .

ومثلما لاكته الأفواه ، واستنشقته الحناجر ، لاكته أيضا الألسن والعقول ، وحيكت حوله الحكايات والأساطير . حتى استقر التبغ فى أذهان الناس من « بادو » إلى « بكين » على إنه الدواء العجيب والعقار

السحرى . وفى السبعينات من القرن السادس عشر (١٥٧٠) فإن الطبيب المشهور « نيكولاس موناردس » الذى ترجم كتابه « المرجع فى الطب » إلى الإنجليزية فى عام ١٥٧٧ كان واحدا ضمن سلسلة طويلة من خبراء الطب فى عصرهم الذين أوصوا بالتبغ كعقار سحرى يشفى جميع الأمراض من السعال الديكى إلى السرطان وبدءا من عام ١٦٥٠ فإن الأطباء الصينيين كانوا أكثر حماسا لهذا الدواء ولتأثيره الخطير على الدورة الدموية .

وخلال قرن من الزمان من اكتشاف الأوروبيين له انتشر نبات التبغ حول الكرة الأرضية ونما فى وديان إنجلترا وبحلول عام (١٥٧٠) استزرعه فى بريطانيا السير « والتر الش » وكان آنذاك شابا صغيرا ومع بدايات القرن السابع عشر وجد التبغ فى الصين ومنغوليا وسيبريا فى الوقت الذى ابتكر فيه الناس طرقا جديدة لتعاطيه كان أهمها : (الشم فى القرن الثامن عشر والبايب فى القرن التاسع عشر) وتزايدت معدلات الاستهلاك منه بالنسبة للفرد الواحد ، من أقل من جنيه استرلينى فى العام الواحد فى القرن السابع عشر إلى أكثر من جنيهين اثنين فى القرن التاسع عشر ، بينما ارتفع هذا المعدل ارتفاعا حادا فى القرن العشرين ووصل إلى أكثر من خمسة جنيهات استرلينية فى العام نتيجة للتوسع الرهيب والتطور السريع فى عمليات الدعاية والتسويق فى خلال هذه الحقبة ، فبفضل إنتاج أنواع مختلفة من السجاير والآلة الإعلانية المذهلة التى ذهبت فى طرق الإغراء كل مذهب تحولت السيجارة من مجرد مادة تذوق أو تعود وربما إدمان (يؤكد العلماء على إنه ليس هناك إدمان

للسجاير ولكنه الإيحاء النفسى) إلى حالة تكشف شخصية المدخن وأسلوب حياته !! وهكذا فإن شركه مثل « مارلبورو » والتى هى الآن أكثر ارتباطا بصورة القوة الأمريكية ، كانت فى البدايات (١٩٢٠) سيجارة أنثوية وتعبر أكثر ما تعبر عن حاله الفخفخة التى تعيشها المرأة المدخنة آنذاك . ثم أراد لها المسوقون فى الخمسينات غير ذلك ، وبلمسة زر تحولت فى واحدة من أنجح الحملات الدعائية من الأنوثة الطاغية إلى قمة الرجولة والفتوة فصارت تعبر عن راعى البقر الذى يسرح بين الأدغال فوق فرسه وهو يصفر من فرط نشوته وسعادته سواء زهوا برجولته أو بسيجارته . وهكذا تتوغل الدراسة فى التاريخ الاقتصادى والطبى والحضارى لتختصر لنا خمسة قرون كاملة من التدخين ، ولتلقى الضوء على عادة يجمع العالم كله الآن على ضررها الفتاك ، ويعترف العالم كله أيضا برواج ممارستها بين الشعوب . وفى النهاية فإن الأطباء قد نجحوا فى خفض معدل استهلاك الفرد الأمريكى السنوى من السجائر من أكثر من عشرة دولارات إلى قرابة الخمسة . ولكن مازالت أمامهم طرق وعرة شتى عليهم أن يسلكوها .

أمريكا ـ اليابان .. المواجهة

ما أن انقشع غبار الحرب العالمية الثانية عن انتصار امريكا وحلفائها وهزيمة اليابان هزيمة نكراء تجللها كل مظاهر الخزى والعار ، إلا وبدأت حرب من نوع آخر ، تلك هى الحرب التجارية الاقتصادية ، بين القطبين العملاقين ، أمريكا واليابان ـ مرة ثانية ـ وهى الحرب التى تزامنت مع الحرب الباردة بين أقوى دولتين فى العالم ، عسكريا ـ أمريكا والاتحاد السوفيتى ، وفازت بها الأولى دون أن تطلق طلقة واحدة ، بعدما انهارت الأخيرة اقتصاديا .

فإذا كان الاقتصاد هو الذى حسم الحرب الباردة العسكرية ، وأعطى أمريكا مزية التفوق العضلى المطلق ، فتراها ، ماذا هى فاعلة فى حرب ، من ألفها ليائها ، اقتصادية ، ومع خصم لا تلين له قناة ، ويبدو أنه ماهر فى فنونها وأنها لعبته التى يجيدها .

والمأزق الذى وقعت فيه الولايات المتحدة ، أن الأفق صار ينذر بجيوش أخرى تهرول نحو الميدان . وخلف التلال ، قابعة . . وأخرى تشحذ سيوفها . . والمقصود بذلك هم إحدى عشرة دولة شرق آسيوية تسد عين الشمس . ترى كيف ستدور الحرب ؟؟ فإن المجتمعات

الغربية وخاصة أمريكا ، مازالوا يستعملون الوسائل الخاطئة فى فهم وتصنيف الإشارات الواردة من وعن آسيا . . وفى المقابل فإن كثيرا من دول شرق آسيا ، قد حققت نموا اقتصاديا ديناميكيا رائعا ، بتجاهلها للمبدأ الاقتصادى الغربى الكلاسيكى ـ دعه يعمل ، دعه يمر ـ وتبنى استراتيجيات دعم الهياكل الصناعية واعتمدت اليابان هذا النهج منذ قرن مضى ، وحاولت تايوان وكوريا ، محاكاة اليابان ، ولكن مع الأخذ فى الاعتبار ، عوامل قومية معقدة خاصة بكل منهما على حدة . . غير أن السبق والريادة . كان للأولى (اليابان) التى دعمت هذا الدور بمزيد من الاستثمار فى جنوب شرق آسيا ، مما كان له عظيم الأثر فى خلق مناخ هادىء وديمقراطى فى المنطقة يشبه ما كان يسمى بـ « مجتمع شرق آسيا المرفه » قبل الحرب العالمية الثانية .

هل تستفيد المجتمعات الغربية من هذه التطورات الاقتصادية ، أم تضار ؟؟ هذا يتوقف على موقفها مما يحدث ، هل تفعل كما فعلت يابان القرن التاسع عشر التى انصرفت تتعلم كل شىء عن الأنظمة القوية الناجحة ، وتغير من سياساتها حسب ما تقتضيه الظروف أو تفعل كما فعلت الصين فى نفس الحقبة ، أن تقف مترددة إزاء كل ما هو جديد ، رافضة كل تغيير ، متمنية أن تبقى الأمور على صفوها بدون تعكير .

إن نظرية دعه يعمل الغربية ، لا تناسب بأى حال ، الدول الآسيوية ، كما إنه من السذاجة بمكان اختصار كل تلك التجارب الناجحة فى نظرية بسيطة واعتبارها وصفة سحرية تشفى من جميع العلل . ولذلك فقد ظهرت فئة من الاقتصاديين الأكاديميين الذين

عكفوا على دراسة الممارسات الاقتصادية العالمية ، من خلال منظور علمى بحت ، يتجنب كل التشويشات السياسية والاجتماعية . ولكن للأسف فإن دراساتهم على قيمتها العالية لا تعرف طريقها للميديا ولا يقدرها الحكام .

النظرية الاقتصادية الحديثة القائلة بأنه جوهريا لا توجد مصالح مشتركة بين المتنافسين فى مجال الأعمال ، وإنه لكى يحصل المستثمر على أعلى عائد ، تجد أن معدلات الإدخار تزداد إلى الحد الذى إما أن يؤدى إلى زيادة الصادرات أو إلى الكساد ـ . . وإن سوقا ما لا يمكنه أن يتحمل تنافسا إلا فى حدود ما أطلق عليه التنافس المدمر .

نقطة جوهرية من نقاط الصراع بين الولايات المتحدة واليابان . . وهى الصراع حول صناعة أشباه الموصلات (مواد صلبة مثل الجرمانيوم أو السيليكون تتميز بخاصية مزدوجة فى التوصيل الكهربائى ففى درجات الحرارة العالية ، تكون جيدة التوصيل كالمعادن ، عندما تبرد تعمل كعازل ـ وهى مواد أساسية فى صناعة الترانزستور وتفوقت فيها أمريكا لزمن ، لوجود وادى السيليكون فيها) . وهو الصراع الذى نجحت فيه اليابان بتجاهلها وصفات النظريات الاقتصادية على الرغم من الادعاءات المتكررة التى تبناها لوبى أشباه الموصلات فى السبيعينيات فى أمريكا ، بأن اليابان لم ولن تمتلك تلك الصناعة . . لكن ما حدث بالفعل هو أن الشركات اليابانية ، كانت من أوائل من دلفوا إلى هذا الميدان . فقد تمكن العالم الفيزيائى « ليو إيزاكى » من اختراع ما يسمى بـ « النفق ذى القطبين » وهو عبارة عن كريستالة ثنائية القطبية ـ فاز

بجائزة نوبل عن هذا الاختراع ـ وهكذا تمكن إيزاكى باختراعه هذا من أن يدفع اليابانيين إلى حلبة السباق التى كادت أشباه الموصلات أن تخرجهم منها . ومن ثم فقد أغرقت الأسواق الأمريكية ، فيما يشبه الغزو ، فى أواخر الخمسينيات وطوال الستينيات ، بأجهزة الراديو الترانزستور الصغيرة ، وأعقبتها أجهزة التليفزيون وغيرها من الاجهزة الألكترونية الصغيرة ، التى حملت كلها عبارة « صنع فى اليابان » . .

ولاحظ المنتجون الأمريكان أن المنتوجات اليابانية التى اعتمدت اشباه الموصلات اليابانية فى تركيباتها ، قد تدنت أسعارها بطريقة غير عقلانية بل أقرب أن تكون انتحارية . وحقيقة الأمر أن الأمريكان إذا كانوا يصرخون الآن ، فهم أول من وضع أسس تلك السياسة ، القائلة بخفض الأسعار بطريقة حادة وفيما يشبه الصدمة ، من أجل الانفراد بسوق معين وطرد جميع المتنافسين منه الكل ما حدث هو أن اليابانيين كانوا أسرع وأكثر شغفا بتطبيق نظرية ، هى فى الأصل أمريكية .

وجولة أخرى من جولات الصراع الذى لا يهدأ بين القطبين العملاقين ، تبدأ فى عام ١٩٨٥ حين أصبحت شرائح الـ ك . د . رام فجأة غالية ونادرة ، وهى أجزاء مهمة جدا فى صناعة ذاكرة الكمبيوتر . وعزى ذلك إلى اتحاد واتفاق غريب ومريب فيما بين المنتجين اليابانيين . وجأرت الشركات الأمريكية بالشكوى ولطمت الخدود ، ليس لندرة تلك الشرائح ـ التى رفعت أسعار أجهزة الكمبيوتر فى السوق العالمية ـ ولكن للأسعار المتدنية جدا التى أخذت الشركات اليابانية تبيع بها كمبيوتراتها وشرائحها للذاكرة . هذه الشكاوى الأمريكية ، تجمعت

بكثرة وأدت إلى اتفاق بين البلدين وقع فى يوليو ١٩٨٦ . ويقضى بأن يلتزم منتجو شرائح الذاكرة اليابانيون ببيع منتوجاتهم بأسعار أعلى من أسعار التكلفة التى يبلغونها ربع سنوى لوزارة التجارة الأمريكية (وكانت تلك الأسعار تبلغ بأعلى من حقيقتها ثم تفاجأ الأسواق بأسعار أقل من سعر التكلفة) ومنذ ذلك الحين بدأ اليابانيون يبلغون أسعارا حقيقية ، تضمن لهم هامش ربح معقولا . . وعلى الرغم من هذا فقد وجدت الكثير من شرائح الذاكرة اليابانية الرخيصة ، طريقها للأسواق العالمية . . وعندما ردت الولايات المتحدة فى عام ١٩٨٧ ، بأن حصلت ما قيمته ٣٠٠ مليون دولار ، كتعريفة جمركية على المنتجات اليابانية ، عندها فقط تدخل وزير الصناعة والتجارة الدولية اليابانى ، فارضا المزيد من القيود التى تضمن بقاء أسعارهم أعلى من معدلها .

وختاما فقد حققت الشركات الأمريكية إنجازاً فى مجال صناعة أشباه الموصلات فيما بين عامى ٨٦ ـ ١٩٩٢ ، إذ احتكرت السوق تماما بأسعار أرخص كثيرا من نظيرتها اليابانية . . ولكن الأخيرة أعادت إحكام قبضتها ثانية فى عام ١٩٩٣ .

كان ذلك إذن استعراضا للسياسة الأمريكية المنتهجة فى آسيا . وكيف أن هذا النهج يعتمد الاقتصاد محوره الأوحد الذى تدور حوله وفى فلكه آلياته . . كذلك هو توصيف جيد لدقائق الحرب الساخنة بين القطبين الاقتصاديين العملاقين ، التى لم يخمد أوارها بعد . وكان قدر آسيا أن تدور على أرضها مختلف أنواع الحروب الحديثة بمختلف حراراتها . .

النظام العالمى الجديد

العالم فى نهاية القرن لم يتحرك ـ وكما يتصور الكثيرون ـ إلى وضع أكثر استقرار وتماسكا فيما عرف « بالنظام العالمى الجديد » فعالمنا الذى تمسكت فيه الملايين مع بداية قرنه العشرين بأهداب النظريات المثالية المبشرة بالمدن الفاضلة « التى تحولت إلى خلفية تبريرية لأقسى النظم السياسية تسلطا وديكتاتورية . هذا العالم انزلق بعد الفشل الذريع لهذه التجارب الشمولية إلى حالة من السيولة والفوضى الشديدة . وهذه الحالة تطوى بالضرورة احتمالات مرعية من التقلبات والعنف والصراع ، تتغذى أساسا على حالة معقدة ـ وفاضحة ـ من عدم التوازن فى توزيع الموارد بين أطراف العالم الفقيرة ومراكزه الفنية ، وما يترتب على هذا الوضع من مشاعر شاملة من الإحباط والاحتقان والتذمر ، كتل وتكتلات .

فهناك من يذكرنا بأن عالمنا ـ بعيدا عن أى شعارات ـ ممزق بالفعل بين فئتين من البشر بينهما هوة واسعة ، وهما الأقلية الغنية والأغلبية الفقيرة . هذا الوضع « اللامتكافىء » ـ خاصة فى غياب أى تقدم ملموس نحو إرساء نظام عالمى جديد متعاون وعادل ـ سوف يساعد على سرعة تآكل

المصداقية الأمريكية كصانعة ـ ثم راعية ـ لمفهوم النظام العالمى الجديد . فثورة التطلعات التى تنهش المجتمعات الفقيرة ـ فى عصر الاتصالات الحديثة والأقمار الصناعية وتقنيات الكومبيوتر ـ تمثل عامل ضغط وإثارة يترجم عمليا فى صورة اضطرابات اجتماعية وصراعات سياسية تختنق بها خريطة العالم الآن . وفى المقابل فإن الدول التى تمتلك أسباب القوة والثراء سوف تميل إلى التكتل مع بعضها البعض . لتصبح أكثر قدرة على تطوير مواطىء أقدامها فى العالم وحماية ثرواتها الخاصة . إن الولايات المتحدة الامريكية ـ وإن كانت ستظل الدولة الأعظم ـ بلا منازع ـ فى الحاضر والمستقبل القريب إلا أنها ستجد نفسها مضطرة إلى التخلى عن دورها « الكونى » كراعية للنظام العالمى لتصبح عضوا بارزا مندمجا فى أحد التكتلات العظمى المحتملة . كما أن التجمعات المقبلة المفترضة سوف تشهد حركتين من التنافس : إحداهما داخلية « بين أعضاء الكتلة الواحدة » والأخرى خارجية فى مواجهة الكتل الأخرى . إن بداخل كل كتلة ستكون هناك دولة « قائدة » طموحة بشكل زائد وتفرض سطوتها على أعضاء التكتل ومن ثم تسعى إلى بلورة دور حيوى خطير على خريطة القرن المقبل . هذا التصور ينطبق مثلا على « الولايات المتحدة الأمريكية » فى كتلة أمريكا الشمالية . وعلى « ألمانيا » فى الكتلة الأوروبية وعلى « اليابان » و « الصين » فى كتلة شرق آسيا ـ وهو بالمناسبة يرشح الصين لحمل لواء القيادة لمستضعفى العالم وهو نفس الدور الذى لعبه أو تظاهر به الاتحاد السوفيتى السابق كذلك ينطبق هذا التصور على « الهند » فى كتلة جنوب آسيا و « روسيا » فى التكتل الأوراسى . . وسيكون

التفاؤل بين هذه الكتل الثقيلة بالغ التعقيد ويستوعب كل الاحتمالات التى ستحددها فى الأساس موازين القوى والمصالح داخل الكتل وخارجها . خذ مثلا « اليابان » فرغم أنها متورطة حتى أذنيها فى منافسة أمريكا وتحديها اقتصاديا إلا أن وجود « الصين » ـ ذات الإمكانات الاقتصادية والسياسية الهائلة ـ فى قفص واحد مع اليابان « كتلة شرق آسيا » سوف يفرض على اليابان الحفاظ على جسورها الأمنية والعسكرية مع الولايات المتحدة ويشير أحد الاستراتيجيين الأمريكيين إلى أن الصراعات بين هذه التكتلات العالمية واردة تماما إلا أن الأكثر خطورة فى الواقع هو الصراعات المحتملة داخل التجمعات نفسها . فكتلة أمريكا الشمالية هى الأبعد نسبيا عن احتمالات هذا النوع من الصراعات الداخلية ، فى حين تبقى التكتلات الأخرى عرضة للصراعات القومية والعرقية والسياسية والاقتصادية وهو ما يراكم بالتبعية توترا فوق توتر وأزمات فوق أخرى على المستوى الدولى .

إن واقع التكتلات العالمية ـ وإن كان له إيجابياته ـ فإنه لن يساعد بالتاكيد على تجاوز الهوة السحيقة بين « المراكز » المتقدمة و « الأطراف » الفقيرة التابعة . ذلك أن منطق التكتل لا يقوم على أسس غير عملية بل فوق خلفيات صارمة من المصالح الاقتصادية والسياسية وبالتالى فإن العزلة التى تشعر بها الدول الفقيرة سوف تتعمق مع تطور أوضاع «التكتل » وهو ما سيمثل رافدا أساسيا للتوتر والإحباط وعدم التجاوب من قبل العالم الأفقر مع آليات الأوضاع الجديدة .

وعند رصد الأوضاع الديمقراطية فى العلم نجد أن انتصار المفهوم

الديمقراطى الغربى وهزيمة النماذج الشمولية الجامدة ـ وبالأخص الشيوعية ـ من المؤشرات الإيجابية الباعثة على التفاؤل لكنه يسارع إلى التاكيد على أن خريطة الديمقراطية فى عالم اليوم تبدو شديدة الارتجاف والاهتزاز فتبعات التطبيقات الليبرالية داخل الدول المتخلصة حديثا من نظمها الشمولية لا تظهر منها حاليا سوى آثارها السلبية المدمرة فالفوضى الاجتماعية العارمة والارتفاع المذهل فى أسعار السلع والخدمات والصراعات العرقية والقومية وتفكك مؤسسات الدولة . كل هذه مظاهر تسجل حضورا كاسحا فى هذه الدول « كما هو الحال فى الجمهوريات السوفيتيةالمستقلة » .

أضف إلى ذلك دول العالم الثالث التى تتجه إلى اقتصاديات السوق بعد سنوات طويلة من تطبيق نماذجها الاقتصادية المشوهة والعقيمة . . هذه الدول جميعا تعيش حالة من عدم التوازن والانفلات التى قد تفقد شعوبها الإيمان بجدوى النموذج الليبرالى الغربى . فعلى العالم العربى ألا يدع الأمور تنفلت من بين يديه . وأن يحافظ على استمرارية سيادة المفهوم الليبرالى الغربى بشقيه السياسى « الديمقراطى » والاقتصادى «السوق الحرة » وهنا تثار نقطة هامة تمثل فى الواقع ردا على أطروحات «فرانسيس فوكوياما » فى كتابه الأشهر « نهاية التاريخ والإنسان الأخير » إذ فضلا عن فكرة وجود « سقف » للتصور البشرى و « نموذج » نهائى لهذا التطور ، مما لا يتفق مع المنطق والنظرة التاريخية فإن خطورة هذه الفكرة تكمن فى تغذيتها التلقائية لمشاعر العنجهية والاستعلاء الغربية على حساب خصوصيات وهويات الشعوب الأخرى . إذ تنطوى ضمنا

على افتراض عنصرى بأن محاكاة النموذج الغربى هى الخيار الإيجابى الأوحد الصالح للجميع . وهذه النظرة الاستعلائية هى بالذات أحد روافد تنشيط الحركات الأصولية المتطرفة بمختلف أنماطها ـ والتى يظهر رد فعلها فى صورة كراهية مرة وهستيرية لكل ماهو غربى .

وقد ظهرت دعوة للعالم المتقدم وعلى رأسه الولايات المتحدة أن تتهيأ مجتمعاته لتكون نموذجا ماديا ومعنويا قابلا للاحتواء فأوضاع المجتمعات الغربية اليوم لا يمكن أن تقدم نموذجا من هذا القبيل . كذلك ينبغى على الغرب أن يقوى من هياكل وآليات المؤسسات الدولية « كالأمم المتحدة » ويعيد ترتيب حجراتها على أسس عادلة جديدة ، لتتمكن من لعب دور أكثر فاعلية ـ على مختلف المستويات لإحداث توازن نسبى بين فئتى العالم الغنية والفقيرة .

وهذه الدعوة تحذر من حالة السيولة والفوضى التى تجرف العالم إلى هاوية من الأزمات والمشكلات المعقدة ويدعو هذا العالم بحرارة ـ وخاصة أولياء أمره ـ إلى محاولة « ضبط » النشاطات التى تمارسها المجتمعات والأفراد فى مختلف المجالات . مثلا فبعض النشاطات المادية والعلمية ينبغى تقييدها باتفاقات دولية وبمراعاة قواعد أخلاقية طوعية ذلك أن هذه القوة المادية يمكن أن تدمر البشرية « بشكل مباشر أو غير مباشر » كما يظهر الاستغلال الأرعن للبيئة والاستخدامات السيئة للتكنولوجيا « مجالات التسلح » . . كذلك النشاط السياسى ينبغى أن يخضع لأطر دستورية محددة . تحظى بموافقة الأغلبية فلا ينبغى الإذعان لشروط وهمية للمشاركة السياسية تجعل من الممارسات الديمقراطية

نشاطات مظهرية خادعة تتغذى على سلوكيات ديماجوجية وشعارات مفرغة المضمون وحتى النشاطات الاجتماعية والشخصية ينبغى تشذيبها لتتجه بالأفراد إلى مستويات راقية من السلوك الحضارى البعيد عن الأنانية والجشع والإفراط فى الاستهلاك وتجاهل آلام الغير .

فالعالم المتقدم ـ وهو الأكثر تخففا من الآثار السلبية للأزمات الاقتصادية هو المرشح للمبادرة إلى صناعة هذا النموذج ـ المادى والمعنوى المتوازن فبدون هذا النموذج المثالى سوف يظل العالم يتخبط ويترنح حتى نهاية هذا القرن . ليصافح مائة عام أخرى وهو أسير حالة خطيرة من الفوضى والاضطرابات على مختلف المستويات .